أسطورة اسلامية من الأدب الروسي :

السلطان وولده ...

للكاتب الروسي مكسيم جوركي

للأستاذ مصطفى جميل مرسي

« يعد مكسيم جوركي — شيخ الأدب الروسي — قطباً من أقطاب الثورة البلشفية الذين مهدوا لها كانوا يسطرون لقيامها أمثال ليون تولستوي والامير كوزباتكين . ولد جوركي في سنة ١٨٦٨ ، ونشأ فقيراً يعاني شظف العيش وذاق مرارة الحياة بين تلك الطبقة السفلى من المجتمع . فكان ذلك أثر جلي في طبع أدبه بطابع البؤس والشقاء . وفي هذا يصل مكسيم الى ذروة فنه ، وقد لبث جوركي يقود الحركة الأدبية في روسيا الى أن وافته منيته سنة ١٩٣٦ بعد أن أخرج عدة كتب تعد من روائع الأدب الروسي ؛ منها « الأعماق السفلى » The Lawer Depths « وكتاب « ذكريات الشباب » .

وفي هذه القصة التي نقدمها اليوم الى قراء (الرسالة) نهج جوركي نهجاً جديداً ولكنه رائع ممتع ... نهجاً يتجلى فيه خيال جوركي الخصب ، وأفكاره البديعة ، ومعانيه الجليلة وأساليبه الرائقة .

وسيلمس القارىء الكريم ذلك بينا في هذه القصة » .

م . جيل

اعتمد « التتاري » الأعمى ظهره إلى جذع شجرة من أشجار التوت ، وراح يقص واحدة من تلك الأساطير التي سطرتها الذكريات في عقله عن شبه جزيرة القرم ... والتف حوله حشد من « التتار » في بردهم الوشاة المفوفة » ومطارفهم الزاهية المخلية ... وقرت فوق رؤوسهم قلانس مطرزة بالذهب ... وقد جلسوا على أحجار دارسة ، وأطلال بالية ، كانت حينا قائمة في جدران قصر فاخر لسلطان من السلاطين القدماء .

كانت الشمس تنحدر نحو مستقر لها في البحر ، فتبعث أشعتها الجاهدة الكليلة وقد راحت تحترق ستور الظلام ... وتعبث بحلكته ، وتميس بين أوراق الطحلب فتخلع عليها روعة وبهاء ، وتسيطر على الأطلال فتبعث فيها شيئاً من الرهبة والرواء ...

وبرحت الريح رخاء تداعب غصون الأشجار ، وتصاول الأوراق فيسمع لها حفيف وزفيف ... وكأن صوت الرجل ينبعث واهناً فيه بعض من الاختلاج والاضطراب ؛ أما وجهه فكالصخر جامد لا يمم تجعده على شيء سوى الراحة والهدوء . وانسابت الألفاظ من لسانه حيناً ، ومن قلبه أحياناً تعيد لسامعيه صورة جلية للأيام الخالية العامرة بالهناء ...

ولم يلبث أن قال في صوت جليل ، وجرس ندي :

« زعموا أنه عاش في شبه جزيرة القرم سلطان يقال له ... « مسيلمة الأسراب » وكان له ولد يدعى « توليق الجلي » .

كان هذا السلطان كهلا ، بيد أن قصره ضم كثيراً من النساء اللاتي عشقن السلطان الكهل ... فما زال جسده يمور قوة ونشاطاً ، ولا زالت نفسه تمور مرحاً وشباباً ... وما برحت النساء يعشقن ذا القوة والبأس . ! إذ يقال ان الجمال يكمن في ثنايا القوة ... لا تحت الأظافر الناعمة والوجنات الأسيلة المخضبة .

كن جميعاً يعشقن السلطان ، ولكن السلطان ينصرف عنهن إلى ظبية سباها في حرب له مع « القوزاق » عند مروج نهر « الدنيبر » ... وكان يخص هذه الفتاة بجل حبه وعطفه وحنانه وينفر عن نسائه وجواريه وقد نيفن على الثلثمائة من كل فج وبلد . نسوة منهن العذراء والخود والبضة ، والمطبول والغيداء والفاتنة والرقراقة إلى غير ذلك ... كانت كل منهن على جمال رائع كالزهور ، وقد تفتحت أكمامها في صبيحة يوم اضحيان من أيام الربيع ... .

لم يبخل السلطان عليهن بمال — بل كان يغدق عليهن بسعة ويجلب لهن ما يودون ... أتى لهن بالخمر الفاخرة ... وبما لذ وطاب من طعام وشراب . وكان يأذن لهن بالرقص واللهو كما يحلو لهن . ولكن إيثاره للفتاة القوزاقية بحبه كان ينغص عيشهن بعض التنغيص ...

كثيراً ما كان يدعو الفتاة القوزاقية إلى جناحه حيث يشرف

على البحر المسيطر إلى الأفق ... حيث أعد لها كل ما تطمح إليه نفس امرأة ويهفو نحوه فؤادها كي تلحقها السعادة في الحياة ... الحلوى والفاكهة والشفوف والغلائل ... والقلائد من ذهب، والأقراط من شذور، والوشائح من زمرد ... وتغنت الطيور المعتدلة بأغاريد عذبة ...

هذا غير ماميز به السلطان من لطف المشر ودماثة وفتنة ... في هذا الفردوس يقيم السلطان أياماً ولياليَ يتمتع نفسه بهذا النعيم ويتذوق الراحة والسعادة وهي تسعى إليه بعد العناء الذي يلقاه من أعباء الحكم ... يقضي أيامه وقلبه آمن على ولده ... وقدرته في أن ينهض بعظمة السلطنة إبان غيبته ... فهو يعلم كيف ينسل ولده إلى مروج الروس كالذئب فيغزوها ويغير عليها ... ثم يعود والنصر يعقد لواءه على رأسه ... فيكللها بآيات المجد والفخار ... يعود مثقلا بالغنائم والأسلاب ... والسبايا الفاتنة ... يعود بعد أن يخلف الذعر والإضطراب ... وقلوب الأعداء ملوثة بالدماء والهزيمة ...

* * *

وحدث مرة أن عاد «توليق» من إحدى غزواته للروس فائزاً مظفراً ... فأقام حفلا دعى إليه الأمراء وعظماء الدولة ابتهاجاً بالنصر المبين ... وعقدت المباريات ومدت موائد الطعام ... وراح القوم يقذفون نبالهم على أعين الأسرى ليعرفوا من هو أشد الجمع ساعداً، وأصوب رمياً ... وعادوا إلى الشراب يتهلون حتى أترعوا وهم بين ذاك وذاك يمجدون هذا الفوز والنصر الذي أحرزه بطلهم العظيم «توليق الجلي» ... ويشيدون بالخوف والهلع وقد خلفهما ينخران في عظام أعدائه.

أما السلطان فكان سروره بفوز ولده لا يعادله سرور ... وكان يعتقد أنه إذا ما انتقل إلى السماء سيستوي على العرش من بعده سلطان قوي مرهوب الجانب ...

رغب أن يبدي لولده مبلغ حبه وإخلاصه له — على مرأى من شعبه ووعيته — فهم والقدح في يده وقال:

«بني العزيز «توليق» ... فتح من الله ونصر مبين ... والنصر آية من آيات رسوله ونبيه ... »

فارتفع صوت الحشد يترنم بأنشودة حماسية تمجد نصر النبي،

ثم عاد السلطان فقال: «إن الله عظيم خبير ... لقد جدد قوتي ومضائي في ولدي الأروع ... إني لأبصر بعيني الناريتين عندما يغيب شعاع الشمس عنهما إلى الأبد، وعندما يدب الفناء إلى قلبي النابض وأقضي نحبي ... أني سأحيا ثانية في نفس أخرى ... في نفس ولدي ... فسبحانك اللهم أنت الإله الأوحد الجبار ... لقد رزقتني ولداً عظيما صلب الساعد، ثابت الجأش وزين العقل فاللهم إني أشهد بوحدانيتك وقدرتك، وأشهد أن محمداً رسولك ونبيك.

أبتي توليق ... ماذا تبغي أن تقدم لك يد أبيك؟. اذكر ماتود، وسأمنحك إياه.»

وخفت صوت السلطان رويداً حينما أخذ «توليق الجلي» يتأهب لإعلان رغبته، وقد تألقت عيناه تألق البحر في ضوء القمر ... عيناه اللتان كأنهما عينا النسر وهو يحوم بقلة الجبل ... قال أخيراً:

— مولاي وأبت ... امنحني الفتاة القوزاقية ... »

وصمت الوالد ليهدىء من روعه، ويسكن من نفسه المضطربة — ونواده الجياش ... وبعد برهة رفع صوته ثابتاً لا يمّ عما يعتمل بنفسه: «... خذها ... عندما يختتم الحفل»

شملت البهجة والمراح قلب «الجلي» ... وتألقت عيناه النسريتان بدموع الفرح ... وقال لوالده السلطان في حب وبر:

— أي والدي ومولاي ... إني لأقدر مبلغ هديتك إياي ... إني لأقدره حق قدره ... إني ابنك بل قل عبدك المخلص لك ... خذ دمي ... قطرة في كل لحظة ... سأموت أكثر من ميتة فداء لك ... يا أبت ويا مولاي ... »

فقال السلطان وقد طأطأ رأسه إلى الأرض — رأسه الذي طالما كلله النصر بآياته سنوات متتاليات — «إني لأرغب عن كل شيء.»

* * *

آذنت الوليمة بالانتهاء، فهمّ السلطان وولده يسيران من القصر إلى دار الحريم ...

وكانت السماء تغشيها السحب، فطوت القمر والنجوم في

حجب منيبة . دام السير طويلا فى صمت وسكون ... وأخيراً قال السلطان « الأسراب » :

— ستفنى حياتى يوما بعد يوم ، وسيخفت قلبى فى خفقاته حيناً بعد حين ... وستخمد رويداً هذه الجذوة المستعرة فى جسدى ... جذوة الحياة . لقد كان الضوء الذى يشع لى فى حياتى ، والدفء الذى يبعث لى بالحرارة هى تلك الفتاة « الفوزاقية » ... خبرنى بُنَىَّ « توليق » ... خبرنى إن كنت حقاً فى حاجة إليها ... خذ مائة من حرسى ... خذهن جميعاً ... بدلا منها ... »

صمت « توليق الجلى » ... فعاد السلطان المتيم يقول :

— لقد نقضت حياتى ... ولن ألبث طويلا فوق أديم هذه الأرض ... فدعنى أنعم بحب هذه الفتاة ... إنها تعشقنى ... من ذا الذى سيحبنى بعد أن تنأى عنى ؟! يحبنى ... أنا يا من دبت فى جسدى الشيخوخة ... من ؟ ليست واحدة منهن يا توليق ... »

ولكن « الجلى » لم ينبس ببنت شفة . « بالله ... كيف يتردد لى نفس ، وأنا أحسب أنك تعانقها ... وأنها تقبلك ؟ ... إذا كنا أمام المرأة يا توليق فلسنا والداً وولداً ... ليت جروحى — وقد تناثرت فى جسدى — تكاثرت فسال دمى حاراً دافقاً منها ... فهذا خير وأفضل من عيشى حتى هذه الليلة ... »

انتهى بهما المطاف عند باب الحريم ، فوقفا — وقد طأطأ كل منهما رأسه إلى الأرض — وشاع الصمت بينهما ، وشملهما الظلام . وفى السماء راحت بعض السحب تطارد بعضها والريح تميل الأشجار عن يمين وعن شمال ... وكأنها تترنم لها ...

قال « توليق » فى صوت هادئ رزين « يا أبت ... لقد أحبتها » فقال السلطان « أعلم هذا ... كما أنى أعلم أنها لا تحبك »

— إن قلبى لينفطر حينما أفكر فيها ...

— وإنى لأشد منك حباً لها ...

وعاد الصمت يحلق فوقهما ويرين عليهما ... فقال « الجلى » فى صوت فيه ألم ، وفيه عزاء :

— لقد أدركت الآن صدق الحكمة القائلة « المرأة خلقت لتتعب الرجل » إن كانت جبناء راحت تغرى الآخرين ليتملقوها فتوقظ فى زوجها آلام الغيرة والحسرة ... وإن كانت قبيحة ، فزوجها يعانى من قبحها ويعانى آلام الحسد ومرارة الحقد على غيره ... وإن لم تكن بالجميلة ولا بالقبيحة راحت تتدلل على زوجها وتجعله يعتقد أنه لم يقم بواجبه نحوها ، فهى إذاً مصدر شقاء الرجل وتعاسته فى هذه الحياة ... »

فقال السلطان :

— ليست الحكمة دواء ناجعاً لشقاء القلب ! يا بنى

— يا أبت ... يجب أن يشفق كل منا على الآخر

فرفع السلطان رأسه ، وراح يحدق فى ولده ... فقال « توليق »

— يا أبت ... دعنا ... دعنا ... نقتلها

فشك السلطان غير طويل ثم قال فى تمتمة هادئة :

— إنك تحب ذاتك أكثر منها ومنى ؟!

— أجل ... وأنت الآخر!

فقال السلطان بعد هنيهة فى صوت شاع فيه الألم ، وشاع فيه الحزن حتى لكأنه ارتد صدياً

— نعم ، وأنا الآخر

— سوف نقتلها يا أبت

— لن أدعك تأخذها لنفسك ... لن أدعك

— لا أقدر على مجالدة هذا طويلا ... إما أن تمزق قلبى أو تتركها لى . فلم يقل السلطان شيئاً ... « أو دعنا نلق بها من شاهق إلى البحر فتتردى ... » فراح السلطان يردد هذه العبارة ، وكأنه رجع الصوت الذى أطلقه ولده ... وهو يهز رأسه فى شرود وألم

— دعنا نلق بها من شاهق إلى البحر فتتردى ...

دخلا الحريم ، واتخذا وجهتيهما حيث مرقدها فى فراش وثير ثمين ... فوقفا ساهمين ينظران ... وفى قلب كل منهما لهفة وشوق ... وألم

وانحدرت من مقلتى العجوز دمعات فسالت على وجنتيه ... ثم تألقت على لحيته — وقد حاكت الفضة فى لون شعرها — أما ولده فقد قام بعينين لامعتين ... يصر على أسنانه ليخفى ذلك الهوى الذى يضطرب بين جوانحه ... وقد راح يوقظ الفتاة « الفوزاقية » ... أفاقت من نعاسها ، تفتحت عيناها على وجنتيها الورديتين فكأنهما زهرتان من أزهار الأقحوان ...

لم تبصر « توليق » ولكنها مدت شفتيها الأرجوانيتين إلى السلطان.

— قبلني ، يا نسرى العزيز . فقال السلطان في رقة :

— انهضي ... ينبغي أن تأتي معنا ...

ووقع طرفها على «الحلي» ، والدمع يتألق محبوساً في عينيه .. فما أسرع ما أدركت ، وفهمت كل شيء — وقالت :

— هه ... سآتي ... سآتي ... ليس لواحد منكما ... أليس هذا مبتغاكما ؟ وما قر عليه أمركما ... القلوب القاسية أن تقرر وعلى النفوس الضعيفة الواهنة أن تطيع .. سآتي معكما ...

وانطلق ثلاثتهم شطر البحر في صمت وسكون ... سلكوا في سبيلهم مسالك ضيقة ، والريح لها صوت كعواء ابن آوى ...

كانت الفتاة نحيلة الجسد ، هيفاء القد ... فما أسرع ما أدركها الوهن والعناء ؛ ولكن كانت تعاني هذا في صمت ، ولا يند عنها ما يم عليه ... وإذ لمح ابن السلطان ما اعتراها — وكان يسير إثرها — أسر لها « أأنت خائفة ؟! »

فلمعت عيناها ، وأشارت إلى قدميها الداميتين ... فقال وهو يمد ذراعيه إليها « دعيني أحملك ! »

بيد أنها نفرت منه إلى عنق نسرها العجوز ... فرفعها السلطان كالريشة حاملا إياها ... بينما راحت هي تثني أغصان الأشجار وتزيحها من أمام وجهه

وطال المسير ... وأخيراً طرق أسماعهم صوت البحر وهو يهدر ويزمجر على مبعدة منهم ... قال « توليق » موجهاً حديثه لأبيه « دعني أمض أمامك » وإلا حدثتني نفسي الأمارة بالسوء أن أغمد خنجري في ظهرك »

— امض ... كما تشاء ... إن الله سيغفر خطيئتك هذه ... ويعفو عن إساءتك ... فقد غفرت لك وعفوت عنك ، إني لأعرف ما هو الحب يا بني !

وأخيراً أبصروا البحر يجثم تحتهم ... كانت صخورهم سامقة . والظلام يسربلها ... الظلام الذي ليس له حد ولا نهاية ؛ وراحت الأمواج تهدر بألحان الموت وهو يسري بين الصخور ... وقد أخفاها الظلام بحفه القر والخوف .

قال السلطان بعد أن طبع على ثغر الفتاة قبلة حارة : « وداعاً . وقال « الحلي » وهو يحني هامته لها « وداعاً ... » .

ألقت الفتاة بطرفها إلى ما تحتها حيث صخب الموج يردد ألحان الرهبة والجلال ... فضمت يديها إلى صدرها وقالت في هلع وفرق « إقذفا بي ... » .

فمد « توليق » يديه إليها وهو يئن ويتأوه ... ولكن السلطان أخذها بين ساعديه وضمها إلى صدره وقبلها ثانية ... ثم رفعها فوق رأسه وألقى بها من الصخرة الشاهقة إلى واد سحيق ... وارتفعت ألحان الموج .. ألحان الموت .. أجل رهبة وأشد فزعاً .. ولم يُسمع للفتاة صيحة وهي تلقى في الماء ، أو تلقى حتفها على الصخور .

وتهالك السلطان على نشز وراح يحملق في الظلام يحاول بطرفه أن يخترق سجف الليل ... سجف الغيب ... وما برحت الأمواج تلطم الصخور في جنون وهوج ... والريح تهب عاصفة في أعقاب موكب الموت ... تعبث بلحية السلطان العجوز .

وجلس « توليق » جواره وقد دفن وجهه بين راحتيه ، لا يتحرك ولا ينبس ... وكأنه الصخر ...

وتقضى الوقت والسحب يطارد بعضها بعضاً في جو السماء ...

شاعت الكآبة في ثنايا الظلام الرهيب المهيب ، وكأنها تلك الأفكار التي راحت تطوف سوداء بخاطر ذلك السلطان العجوز ... وهو جاثم على هامة الصخرة السامقة ، ومن تحته البحر يهدر في واد عميق ... قال « توليق » :

— « أبتِ ... دعنا نمض ... » .

فنبس السلطان همساً ، وكأنه يتوجس نأمة تسري في الهواء : « مهلاً » .

وعاد الوقت يمضي ، والأمواج تتلاطم في عبث وجنون من تحتهما والريح تصفر بين الأشجار كعواء ابن آوى ... وعاد الابن يردد عبارته ، فردد السلطان إجابته ... وكان هذا الترداد مراراً ... كأن السلطان لا يبرح مكانه ... وقد قبر فيه بهجته ومراحه ... وأيامه الخوالي ...

بيد أن لكل شيء نهاية ، فلم يلبث السلطان أن قام نشيطاً ، ولكن عابس الوجه ، مقطب الجبين وقال في صوت شاع فيه الجفاء :

— « هيا ... بنا ! »

وانطلقا ... ولكن لم يلبث السلطان أن وقف قائلا :

« لِمَ أنطلق معـــك يا توليق ... وإلى أين ؟ ! لِمَ أعيش بعدها ؟ ! لِمَ أعيش بعد أن ذهبت بعيداً عني ... إني عجوز ولن يهواني أحد ثانية ... وإذا لم يهوك أحـد فليس ثمت خير في أن تعيش بهذا الكون ! » .

— « إنك ذو مال ! وذو مجد يا أبت ! » .

— « دعني أرتشف من ثغرها قبلة من قبلاتها نظير هذا المال » ...

هذا المجد ... يا بني . إن الناس جميعاً أموات في هذه الحياة والحي منهم هو الذي يعشق النساء ... إن الحياة هباء بغير النساء ، يا بني ... بارك الله فيك وفي ملكك ... في حياتك وفي مماتك » .

واتجه السلطان شطر البحر ... فصاح « توليق » في هلع « أبت ... أبت ... » . ولم ينطق بغير هـذا ... لأنك لا تجد الكلمات تلفظها لرجل باق حتفه باسماً راضياً رجل آيس من حياته

— « دعني أرحل ... » فقال « توليق » : « الله يا أبتِ ... »

— « إن الله يعلم ، وسيغفر لي » وبخطا سريعة مضى السلطان إلى نهاية الصخرة ... وألقى بنفسه إلى أحضان الوادي ... لم يُسمع شيء فقد عصفت الريح إثر موكب الموت وهو يمضي في جلال وراحت الأمواج تدوّم هديرها ، وكأنها في عراك عنيف مع الصخور ...

وأخذ « توليق » ينظر ويطيل النظر إلى حيث الهوة السحيقة .. إلى حيث الموت تحت قدميه ... ثم ارتفع صوته جليلا ورأسه إلى السماء : « يا إلهي ... أسألك أن تلهم قلبي الصبر والسلوان وأن تغفر لوالدي وتشمله برحمتك إنك غفور رحيم » .

ثم مضى عائداً إلى قصره والصمت يحف به ... حتى غيبه الليل في مطارقه ... » .

مصطفى جمال مرسي

تطلب مطبوعات

مكتبة النهضة المصرية

من

الوكالة العامة بالعراق

إدارة المكتبة العصرية لصاحبها

محمود حلمي

في بغداد ووكلائها في الأقاليم

تليفون ٦٤٨٠ ، ٤٢٧٦

مجمع فؤاد الأول للغة العربية

يعلن المجمع عن حاجته إلى محرر حاصل على بكالوريوس من كلية العلوم ، ومن يقع عليه الاختيار يمنح المأهية المقررة لشهادته في الدرجة السادسة الفنية وتقدم الطلبات على الاستمارة رقم ٦٧ ع . ح باسم حضرة صاحب السعادة رئيس المجمع بشارع قصر العيني رقم ١١٠ في ميعاد غايته آخر نوفمبر ١٩٤٥ وتقدم طلبات موظفي المصالح الأميرية عن طريق مصالحهم ، وكل طلب قدم قبل هذا الإعلان لا يلتفت إليه .

٤٤٩٢

طوال أيام العيد

مسرحية العبـــــــاسة

لمؤلفها عزيز أباظة بك

المسرحية السامية الخالدة التي شرفت بالتصدير السامي

نجاح لم يشهده المسرح المصري

(عانيه أيام الجمع والآحاد وسواريه باقي الأيام)

ظهر حديثا كتاب :

دفاع عن البلاغة

للأستاذ

أحمد حسن الزيات

وقد زيدت عليه فصول لم تنشر

يطلب من إدارة « الرسالة » ومن المكاتب الشهيرة وثمنه ١٥ قرشاً